المشـــــــــــروع الحضـــــــــــاري الإســـــــــــلامي

الأســـــــــــــتاذ/ أنـــــــــــور الجنـــــــــــدي

لـم يعـد هنـاك مفـر مـن أن يتقـدم كتـاب ومفكـرو الأمـة الإسلامية بتصوراتهم للمشروع الحضاري الإسلامي الذي أصـبح ضرورة ملحة بعـد أن مـر المسـلمون والعـرب خلال السـنوات الأخيرة بهذه التحديات الخطيرة التي واجهتهـم والأخطـار الـتي حاصرتهم مما يتطلب وضـع تصـور أصـيل مسـتمد مـن مفهـوم الإسلام الجامع ليكون نبراسًا للخطـوات المتصـلة علـى طريـق الأصالة والعودة إلى المنابع وإقامة معاصرة في دائـرة الأصـالة يكـون فيهـا (البنـاء علـى الأسـاس) وليكـون هـذا المشـروع الحضـاري الإسـلامي بـديلاً للمشـروع الحضـاري الوافـد الـذي حاول السيطرة على مقـدرات المسـلمين والعـرب خلال قـرن ونصف قرن من الزمان بعد أن ثبت عجزه عن العطـاء وفشـله فـــي تحقيـــق الأمـــن النفســـي والمجتمـــع الربـــاني .

ولقد أقام الإسلام منهجه الأصيل على أساس وحدة الفكـر الجـامع الـتي توسـع دائـرة الالتقـاء والتعـارف وتضـيق دائـرة الخلافات حتى تصل الإنسانية إلى عصـر الـتراحم والوفـاء مـن خلال المنهج الربـاني الـذي رسـمه الحـق تبـارك وتعـالى بـديلاً للمنهج البشـري القـائم علـى الصـراع والقتـال وإثـارة الأحقـاد والخصــومات والمطــامع علــى النحــو الــذي نــراه اليــوم .

والذي يتطلع دعاته إلى شق القوى المجتمعة وتدمير الروابط والتي تستهدف أساسا تحويل الكيان الإسـلامي الكـبير إلــى كيانــات وكانتونــات متصــارعة وذلــك بإيقــاظ الخلافــات المذهبيـــــــــــة والتفرقـــــــــــة العرقيـــــــــــة .

والواقع أنه لا سبيل لأي مشروع حضاري علمـاني أو قومي أو بشري أن يمكن لقيام الأمة القادرة على حمل رسالة الحـق تبـارك وتعـالى للعـالمين ، إلا إذا اسـتمد مفـاهيمه مـن الأصل الأصيل الخالد : النص الموثق الذي لا يـأتيه الباطـل مـن

بين يديه ولا من خلفه والذي جمع مختلف القيم الربانيـة العليـا الـتي وهبهـا للبشـرية (القـرآن الكريـم) والسـنة الشـريفة .

ومن هنا فلا بد أن يكون المنطلق الحقيقي من القرآن والسنة على النحـو الـذي بـدأت بـه النهضـة الأولـى إيمانًـا بـأن القرآن كتاب البشرية الخالد الصالح لكل زمـان ومكـان والـذي هو الينبـوع الـذي تنطلـق منـه المناهـج والخـبرات الـتي تمكـن المسلمين خاصة (والبشرية عامة) مـن جنـي الثمـار مـن خلال مخاطبـــــــة العقـــــــل والقلـــــــب والوجـــــــدان .

ومن هذا المنطلق يمكن تأصيل كل المنظمات القائمة وردهـا إلـى منابعهـا : منظمـة الانتمـاء ، ومنظمـة المجتمـع ، ومنظمة التعامل الخارجي مع الغير وتكامـل المجتمـع الـداخلي وتصحيح مسار الاقتصاد ورفض النظـام الربـوي ووضـع المـرأة في مكانها الطبيعي عمادًا للأسرة والمجتمع وبناء التعليم علـى أسس التربية الإسـلامية وتـوجيه أدوات الترفيـة والتسـلية نحـو الوجهة السليمة الـتي تحقـق هـدف الترويـح دون الـدخول فـي دائرة الانحـراف والتبـذل وحمايـة الوجـود الاجتمـاعي كلـه مـن الانحــراف الأخلاقــي ومــن الفســاد والفحشــاء والإثــم كلــه .

ولما كان الإسلام يمتلك قوة رائعة لا يمتلكها إلى منهج بشري أو أيدلوجية أخرى ؛ تلك هي الوسطية : وسطية التوازن والتكامل والمواءمة بين القيم بحيث لا يوجد من خلال ذلـك أي صراع طبقي أو حصون بين الأجيال أو تضارب بين الآباء والأبناء .

هذا التكامل الجامع في الإسلام إنما يمثل ظاهرة حية نابضة بـالقوة تمثـل تكامـل الفكـر والوجـدان ، وتكامـل العقـل والروح ، وتكامل الأصالة والمعاصرة ، تكامل النظرية والتطبيق ، تكامـل الثـوابت والمتغيـرات هـذا التكامـل يفـرض مسـؤولية خطيرة على الفكر الإسلامي وهـي أن تقـف موقـف المراجعـة الواسعة للفكر المادي الغربي والفكر الروحي الشرقي باعتبـار أم كل منهما يمثل (انشـطارية) لاتحقـق سـلامة النظـرة حيـث

تقف النظريات موقف التجزئة بينما يتميز الإسلام والإسلام وحده على جميع النظريات والأيدلوجيات والمذاهب في الشرق والغرب وفي القديم والجديد بكمالية النظرة والتوجه .

ويجب أن يكون واضحًا أمام الأمة الإسلامية أن التجربة الغربية بشطريها قد انتهت إلى الفشل وأن المسلمين لا يأخذون نظم الآخرين ولكنهم يستفيدون من الأنظمة والوسائل فيصهرونها في بوتقة فكرهم ويحولونها إلى مواد خام ينتفعون بها دون أن تحاصرهم أو ينصهروا فيها .

إن المشروع الحضاري الإسلامي يقوم على أساس الوحدة الثقافية بين كل العناصر التي تستظل بلواء الأمة الإسلامية انطلاقًا من رسالات السماء التي جاء الإسلام خاتمًا لها فأحس ثقافته وقيمه ومعالمه التي هي بالنسبة للمسلمين دين وعقيدة وبالنسبة لغير المسلمين ثقافة وفكر لأنها تقوم على أساس التوحيد والإخاء الإنساني والالتزام الاخلاقي والمسؤولية الفردية .

ذلك أن رسالة الإسلام منذ جاءت فقد صهرت كل قيم الأديان واخلاقياتها في منظور جامع واحد قوامه اللغة العربية وقد جمع القرآن الكريم أصول رسالات السماء كلها من صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى .

والواقع أن عوامل الوحدة موجودة وقائمة وتمثل الثقافة الإسلامية الآن ثقافة المنطقة العربية والإسلامية كلها ، وقد جاء الإسلام لإقامة وحدة جامعة ، قوامها تكريم العناصر غير الإسلامية وإعطائها حريتها الدينية وإشراكها في مجريات النهضة والحضارة والعلم كما حدث في العصور الأولى ، والعمل على رفض ومقاومة مؤتمرات الغزو الفكري التي تهدف إلى إثارة الفتن والوقيعة والصراع بين عناصر المجتمع المتكامل وقد كانت الشريعة الإسلامية عنصرًا حاميًا ومؤكدًا لحقوق العناصر المختلفة التي صهرها المجتمع الكبير في بوتقته .

إن النظام الإسلامي هو المنطلق الحقيقي لبناء المشروع الحضاري الإسلامي بقاعدته العريضة من خلال فروعه الثلاث :

1- الشورى . 2- العدل الإجتماعي . 3- الحدود والضوابط .

وهذه القيم الأساسية هي وحدها التي تمكن المجتمع الإسلامي من التماثل المفضي إلى الوحدة الإسلامية الجامعة حيث تتسع دائرة التشابه وتمتد بمفهوم (التعارف) الإسلامي بحيث تلتقي كل العناصر والأقطار والقوميات والنحل حيث يصور الوطن الإسلامي وحدة كاملة في مجال الاقتصاد والثروة والقوى العاملة والأرض الزراعية ومعطيات الركاز مما تكشف عنه الأرض كالبترول والمنجنيز والكوبلت .

وليس هناك طريق آخر لبناء المشروع الحضاري الإسلامي غير إقامة هذا التصور السياسي والاقتصادي على أساس منهج الإسلام نفسه وليس على واقع المجتمعات القائم الأول والذي تشكل خلال السنوات الأخيرة من خيوط وافدة مغايرة لمعدنه الأصيل ومنهجه الصحيح حيث توضع قضية الديمقراطية بديلاً عن تطبيق الشريعة أو اعتمادها – أي الديمقراطية مرتكزًا أساسيًا للمشروع الحضاري الإسلامي ، ذلك أن الديمقراطية الغربية لم تستطع أن تحقق الشورى في مجتمعها الذي جاءت منه ، فبالأولى أنها لا تستطيع أن تكون قاعدة نظام يعتمد على المنهج الرباني ونحن نعرف الديمقراطية منذ جاءت من الغرب وكيف عجزت عن تحقيق أي عدل اجتماعي أو شوري حقيقية ، وأن ما نحتاجه منها وهو (الحرية) موجودة لدينا في النظام الإسلامي على نحو يعرف (بالحرية المنضبطة) وهي لن تكون إلا مدخلاً لتحقيق التصور الإسلامي أما ما يقال من أن تطبيق الشريعة (يتم في نهاية المطاف إذا قدر له) فذلك هو ما ينطلق من أهواء الذين يرمون إلى قيام مشروع حضاري إسلامي مغلوط ترضى عنه

القوى الغربية ذات السلطان والتي ترغب في تفريغ الإسلام من مضمونه الحقيقي وتقص أجنحة الصحوة الإسلامية بالتمويه لتحجب مفهومات أساسية ترغب في حجبها : كالخلافة والشريعة الإسلامية والحكم وتحريم الربا ثم تضع كلمات أخرى زئبقية بحث لا يبقى بعد ذلك من الفكرة الإسلامية الأصيلة إلا تثبيت العلمانية الموجودة الآن والقائمة فعلاً بغلاف براق والحقيقة أنه لا عدل اجتماعي ولا حرية حقيقية (حرية منضبطة) ولا شوري ملزمة إلا من خلال المنهج الإسلامي .

والحقيقة أن المسلمين عربا وفرسا وتركا وهنودًا مسلمون تجمعهم مظلة لا إله إلا الله يليقون على مساحة واسعة من التكامل النفسي والاجتماعي ولا يحتلفون إلا في مساحة قليلة من عوامل البيئة أو ظروف العصر فالربانية هي القاعدة الأساسية لقيام المشروع الحضاري الإسلامي التي تجعل الوجهة خالصة لله تبارك وتعالى في دائرة ما أحله وتبعد عن دائرة ما حرم .

فإذا أردنا أن نتصور المنظومة الإسلامية وجدناها تتمثل في الوسطية الجامعة بين الروح والمادة والعقل والقلب والمنهج والتطبيق والوحي والنقل ، لقيم الشورى منطلقًا للحكم ولقيم الزكاة منطلقًا لحماية المجتمع وترسم الاقتصاد وفق حماية الأمة تأخذ من غنيها لتعطي فقيرها ، وتقيم حياتها كلها على أساس الأخلاق التي هي وعاء المجتمع والحضارة والفرد أيضًا .

والتي تبني الفرد المسلم على أساس المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي وتجعله منطلقًا لبناء الأسرة المسلمة فالجماعة المسلمة فالحكومة المسلمة وتحقق رعاية كاملة لكل عناصر المجتمع لا تغفل الحدود والثغور وتنهض بمفهوم الجهاد الإسلامي (واعدوا) لهم ما استطعتم من قوة ترهبون بها عدو الله وعدوكم وهي ما يمسى في العصر الحديث (القدرة على الردع) وحماية أسرار الأمة وكيانها (لا تتخذوا بطانة من ذويكم) ويجب أن يكون واضحًا أن الشورى

الإسلامية ليست هي الديمقراطية وأن العدل الاجتماعي ليس هو الاشتراكية كما يحاول البعض التمويه على الشباب المسلم ولنكن واعين تمامًا إلى حقيقة أساسية وهي أن الفكر الليبرالي الغربي قد اثبت منذ سنوات عديدة ومنذ عرفته البلاد العربية والإسلامية عجزه تمامًا عن العطاء حتى في دائرة بلاده حيث يطالب الناس بنظام اقتصادي جديد ، كذلك كان الأمر بالنسبة للنظام الماركسي الاشتراكي .

وقد أكدت الأحداث هذه الحقائق حين استعلن في السنوات الأخيرة فشل الفكر الماركشي في بلاده بعد سبعين سنة من التطبيق حيث انهارت القواعد الماركسية اللينية وسقطت تماثيل ماركس ولينين وستالين في مختلف عواصم الغرب .

وكذلك كشفت الأحداث الأخيرة عن عجز الفكر الوافد كله سواء القومي أو الاشتراكي عن العطاء وانهارت هذه الدعوات .

وإذا كان الفكر اليساري قد عجز عن العطاء فمن باب أولى أن يعجز التيار اليساري المسمى بالإسلامي والتيار الإسلامي القائم على مفهوم الاستعلاء بالمفاهيم العقلانية المتخذة من المعتزلة والتي لا تقدم الإسلام مفهومًا جامعًا متكاملاً بين الوحي والعقل .

أما الحملة على الخلافة فهي لا تحجب دعوة الوحدة الإسلامية الجامعة التي يمكن أن تتشكل في أي صورة من صور العصر وقد قدمها بعض فقهاء القانون وغيرهم في صورة كومنولث إسلامي أو جامعة إسلامية فإذا أضفنا إلى هذا التعددية الحزبية والشورى الملزمة والعلاقات السمحة مع غير المسلمين وترابط العروبة والإسلام تشكلت أمامنا صورة واضحة لملامح وخيوط المشروع الحضاري الإسلامي الذي يتطلب العمل من الآن على : الأسس التالية .

أولاً : أسلمة المناهج والعلوم والمعرفة وتقديم البدائل الأصيلة مكان المفاهيم الوافدة في مختلف المجالات .

ثانيا : بناء قاعدة صلبة للتربية الإسلامية الخالصة التي تحتفظ بعناصر الأمة وقدرتها على الإيمان بحق الله تبارك وتعالى على المسلم في دائرة الاستخلاف والعمران والسعي والتحرر من الضعف والرخاوة والترف الوهمي وكلها من علامة الهزيمة التي تبثها أدوات الترفيه .

ولابد أن تخرج الأمة الإسلامية من طابع الضعف وتدخل مرحلة الصمود والعزيمة وذلك حتى تستطيع أن تحقق وجودها الحقيقي وتقيم مجتمعها الأصيل الذي يحمل طابع ذاتيتها الخاصة المي دائرتحرر من التبعية وذلك حتى تستطيع أن تقدم الإسلام للبشرية كلها لتحررها من عوامل القلق الهائل الذي أصاب النفوس والأرواح نتيجة عبادة المادة وتزلزل قيم الأخلاق وهذا إجمال له تفصيل.

***